قصة

١٨ أكتوبر

جلس إلى أولاده يستمع إليهم في صمت . هذا راغب أن تكون حلة العيد ذات سراويل طويلة ، فقد شب عن الطوق ولم يعد صغير الأمس يقنعه الساذج ورخيصه الرخيص . وهذه تريده ثوباً من خالص الحرير ، ولن تكون دون جاراتها تجملاً وحسبها ما لقيت من أذى صويحباتها وسخريتهن في العيد الفائت . وإلى قبالته كبير أولاده يرنو باسماً ، وينظر إليه أبوه فيعرف أنها جنيهات خمس عشرة سوف تدفع ثمناً لقيد ابنه في الجامعة ، والويل له إن سوّفه . وتلك زوجته ومن بين يديها صغيران يتلهفان شوقاً لرؤية « خروف العيد » والأم تضرب لهم الصبح موعداً وما الصبح ببعيد .

وآوى الأب إلى مضجعه فرأى فيما يرى النائم كأن جيوبه قد ملئت ذهباً وفضة ، ورأى الدنيا قد أقبلت عليه ، فقضى ليلة سعيدة الهجعة ، هنيئة الضجعة ، وهب مع البكرة منشرح الصدر وكان ضيقه ، رضي البال بعد بلبال ، رخي النفس بعد برم . فجهد يعرف باعث هذا وهو المرهق عسراً ، فتذكر أنه يملك « ورقة نصيب » ليس على بينة من يومها ، فنشرها بين يديه في لهفة وأنعم النظر فيما تحمل من تاريخ فإذا هو قد مضى عليه أسبوعان

فانكفأ إلى ملابسه يختطفها من شتى المشجب اختطافاً ، وأسرع ينتهم تلك اللقيمات التي أعدت لفطوره على عجل ، وأقبل إليه أولاده يستمعونه البر بما وعد ، ويطلبون إليه الوفاء فأرضاهم بقبلاته . وتعلقوا بأهدابه إلى الباب يشيعونه بصيحاتهم المختلطة حتى أدركوا وانية السلم فلبثوا بها يرقبونه وهو يطوي الدرجات طياً ، وانساح له الطريق فأسرع فيه الخطو لا يلوي على شيء ، وقد سمع لدقات قلبه فزع لشدتها فتريث وأناة وامتدت يسراه تلمس مكان الورقة من جيبه فعادت بها تنشرها بين عينيه ، وأنعم النظر يقرأ . فأيقن أنه

لم يكن مكذوباً ، فتاريخها (١٨ أكتوبر) وهو اليوم في غرّة الشهر الجديد ، ورأى الرقم الدال على الجائزة الأولى تكبر حروفه حتى تكاد تطغى على كل ما هو مسطور ، وأعظم أن يكون بعد قليل مالك ثلاثة آلاف من الجنيهات ، وكان في أمسية مضت ـ لا عادت ـ يضيق بتدبير دراهم معدودة . فضحك حتى بدت نواجذه ، ولكنه ما لبث أن ذكر الناس من حوله فضمّ شفتيه ضمّاً وعبس حتى لا تظن به الظنون ومضى في طريقه .

*

كان وفيق بك وجيهاً مرموقاً يشغل مكاناً في الدولة لا يدركه إلاّ من خلّف جُلّ عمره وراءه . وكان ذا حيلة في الحياة فعرف كيف يمهّد لنفسه سبيلاً أو اثنين إلى رزق آخر يعود به على نفسه وعياله . ولم يكن في وقته أو جهده مدّخر لجديد من السعي فرضي بحظيه هنا وهناك وانصرف يعني عن حوله في خلسات ينتهزها بعد الظهيرة مرة ومع الصبح قبل أن يغادر البيت أخرى . وكانت تحته زوج ترى يدها في كل ركن من أركان البيت ، وهي فيه مشمرة لكل صغيرة وكبيرة مع حزم وتدبير .

وعاش الزوجان لا يعرفان الراحة إلاّ إذا وقّراها لمن بين أيديهم ، ولا يهنئهما إلاّ أن يريا بسمات الرضى والغبطة مترجة بها تلك الشفاه الرقيقة .

وكان جاه الأب لايحميه إلاّ أن يظهر بنوه في رونق وبيته في أناقة فحمّله ذلك عسيراً لم يتسع له هذا الكسب ولا ذاك الرزق . وكانت الحياة غبّ حرب وبين رشيّ غلاء ، من أجل ذلك لم يجد الأب مدخراً يحتال به للطارئة والنازلة ، وما أكثرهن عند من ما لايقوى لهن ويخلن به قصوراً وضعفاً .

*

سكنت تلك الأسرة طابقاً من منزل جميل ، يعلوها في الطابق الثاني رب البيت بآله ، رزقه الله رزقاً واسعاً من تجارة وبيوت وأقبات الحرب فأنمت موات ماله وأزكت ثروته .

وكانت بين الأسرتين آصرة عقد عقدتها الجوار ، ومرت السنون تمكّن لها وتوثّق . ولم تصل فاصلة الغنى فصماً ، وإن كانت قد أرهقت ذا الرزق المكتوب عسراً ، فما أحرصه

عى ألا يتخلف به الركب كثيراً. وقديماً كان في السلم يجري مع مساكنه في قرن ويكاد في بعض أيامه يفوته.

*

كانت زوج «وفيق» عند منصرفه في شغل. ولم تكن تحسبه على تلك العجلة الخاطفة وظنته غير بارح إلاّ بعد أن يديرا الرأي بينهما فيما يفعلان. وهي ذات علم بضائقته ولكنها مدخرة لذلك رأياً همت أن تكشف عنه لزوجها مع المساء فأمسكت حتى لا تغار أولادها في نفوسهم، وتعود بهم صغاراً وقد خلفتهم كباراً.

فما راعها إلاّ صغارها حين عادوا اليها وهي في بعض شأنها يقصون عليها في فرح عجلة أبيهم الى السوق ليحمل اليهم ما يرجون ويحبون.

ونفضت الأم يدها وانتفضت واثقة وهرولت الى الباب تظن انها مدركته. ولكنها ما لبثت أن علمت أنه ودع عجلاً، فآبت مهمومة واجمة. ونظر الصغار هذا الوجه المتجهم فشغلهم وأوجسوا خيفة فسكنوا وجمد كل في مكانه. وساد الصمت، وملكت الأم مقاد حزنها خشية أن توحش قلوب أبنائها بعد أنس، فخرجت من صمتها وعادت اليهم باشة هاشة ولكن قلبها في صدرها لا يزال مشغولاً.

* * *

ثلاثة آلاف من الجنيهات، رزق الله يسوقه الى من يشاء من عباده، ذلك ما أخذ «وفيق» يردده في نفسه وهو يخطو. ولكن شيئاً آخر شغل فكره، وكان يفقد عليه ثم وجدها، لقد لبثت هذه الورقة في جيبه أياماً وما التفت اليها. وبالأمس مرّ به الصبي يحمل بياناً طويلاً بالأرقام الرابحة وصاح بين يديه: الاسعاف. الاسعاف. فما أبه له ولا اعتز. وما كان يضيره لو قلّب ورقته بين يديه وتعرّف عاقبة أمرها. ثم يسكت ويعود اليه شغله فيجد لذة البشرى اليوم خيراً منها بالأمس وان المال المسوق بعد ضائقة أنعش للقلب من مال ساقه الله مع يسر. وإذا ما ارتاحت نفسه لهذه العلة بدأ الشك يخالجه: أهو رابح حقاً، أم ما أحسه وهم واهم وخدعة مخدوع.

فيحس كأن قوة تلقفه من شيء ظنه وتبسط له في الرجاء، وتهيء له علته، ويجدها علة قوية حين التفت الى الورقة بعد نسيان فيعود واثقاً، ويستخفه الفرح فيمضي في سبيله.

وطالت غيبة الزوج قليلاً ولم يكن بين يدي العيد إلاّ يوم أو بعض يوم. وعلى الأم أن تهيء لصغارها ما يحتاجون إن كانت لابد مهيئة، وما عليها أن تعمل ما ارتأت حتى يؤوب الزوج، ما في ذلك من بأس:

قصدت وحدها الى ربة البيت تسألها جنيهات، ولبثت تجد لذلك سبباً ثم وجدته بعد لأي، ولم يكن حقاً كما لم يكن كذبا.

جلست اليها تحدثها ولا تقوى أن تلج الى موضوعها. وطال الحديث ومضى الوقت يجري، وهمت أن تنصرف وخرجت في إثرها صاحبتها تودعها.

وما كادتا تقفان إلى الباب حتى وجدت الشجاعة في أن تطلب ورأت في غيبة الزوج علتها وفيما ربة البيت تعود إليها بما طلبت إذا «وفيق» يُرى صاعداً، فتقبض زوجه يدها عن أن تأخذ، فقد سقط عذرها بمجيئه. وتودع صاحبتها شاكرة منحدرة إلى حيث تلقى الزوج الآئب.

*

شهد شاهدان كانا يقفان غير بعيد على ناحية من الافريز في شارع معمور بالمارة والسابلة، رجلاً وسيم الطلعة بادي الأناقة قد وقف إلى صبي حافي القدمين أشعث أغبر في جلباب خلق وهما يتجاوبان في صوت عال، هاهي منه سخرية الصغير بالكبير، وعدوان الكبير على الصغير. تقفا إليهما يفصلان بينهما.

كان «وفيق» واهماً حين ألقي في روعه أنه في شهر اكتوبر وأنه انصرم منه خمس ليال بعد العشرين، وكان الصبي ... رحيم حين زيّف له قوله. وكان «وفيق» سريع الغضبة حين أغلظ للصغير. وكان الصغير متعسفاً حين سخر به وأمعن في السخرية.

تلك هي الجلبة التي قيّض الله لها رجلين، كادت لولاهما تفضي بالمتخاصمين الى غير محمود من العقبة.

*

ونظر «وفيق» إلى من حوله فرأى العيون تغمز، والألسنة تلغط. ووجد نفسه بين حشد يسأل اللاحق منهم السابق فيحدثه أن هذا وجيهاً به مس. فيضحك من يضحك ويأسى من يأسى. وكذا المصيبة تضحك وتحزن، وعلى هذا جبل الناس ولا يزالون.

وانتفض « وفيق » في رعدة أحس بعدها أن غاشية تكشفت ، وحلا عن عاتقه سقط ، وعادت إليه الواعية تستخزي .

ولكنه ما لبث أن شق طريقه بين الملتفين حوله ومرق لا يلوي على شيء وراءه ، وهمّ أن يطلب سيارة غير أنه ذكر أنه خرج من البيت خاوي الجيوب يضرب في الطرقات ابتغاء هذا الرزق الموهوم ، فخفض يده وقد كاد أن يرفعها مشيراً ، وأمسك صوته في فيه ، وقد همّ أن يرسله منادياً . ومضى يخب في سيره إلى البيت .

*

أتعرف كيف تستقبل المدن الأعياد ؟ هذه محالّ ازدانت مطارحها بالزاهي الجاذب ، وتلك قد كشفت عن ألوان من الحلوى في خُمُر مذهّبة ومفضّضة . والعيد الذي سيستقبله « وفيق » بأسرته عيد كبير ، تساق فيه الخراف إلى المدينة سوقاً .

ومرّ « وفيق » في أوبته بالكثير من هذا ، رأى الثياب الجميلة فتذكر أولاده وحاجتهم منها ، ورأى الحلوى الرائقة فلم ينس أن للبيت مع العيد نصيباً . وما أن وقع نظره على الخراف ، وكان قاب قوسين أو أدنى من منزله ، حتى خال كأن صغيره أمامه يعبث بيديه اللطيفتين على ظهر واحد منها وهو يجاذب الخروف والخروف يندّ عنه ثم يعود إليه شارعاً قرنيه ، فاندفع يجري فرأى حتف ما حسبه خيالاً ، وبصر بصغيره ملقى على الأرض . فحمله على كتفه تاركاً الخروف وراءه . وكنت تسمع الصغير يصيح : لا أريد خروفاً لا أريد خروفاً .

*

وأظل المساء الأسرة فإذا هي في مثل جلستها بالأمس ، وإذا الرغفات هي الرغفات . وكانت الأم أوسع حيلة فلم تترك صغارها ينامون إلا مطمئنين . ولكن الأب لبث جامداً لا يحير جواباً ، وقد حبس صوتاً فيه إجهاشة الباكي ، ودمعة وراء جفنيه خاف أن تنحدر على خديه فتفضح أسى في النفس ، لو انكشف للصغار لآووا إلى مضاجعهم بغير تلك النفوس الراضية .

وآن للأب أن ينام فقام إلى مضجعه متثاقلاً ، وغلبه النوم فنام وأصبح ، فإذا الرغفات هي الرغفات لم ينقص منها شيء ، ونظر إلى الورقة فإذا بينه وبين يومها أسابيع ثلاثة واضطربت جنبات نفسه بأمل ورجاء ، ودّ معه لو تطوى الأسابيع في غمضة .

ولكن هيهات . فأطرق الرأس وهو يردد : « ١٨ أكتوبر »

ابراهيم الابياري